

صفات المؤرخ:

يتضح مما تقدم أهمية التاريخ وضرورة دراسته لما له من فوائد لا تنكر من حل الكثير من مشاكل الحاضر المستقبل، فكيف يجب ان يُدرس ويُدرُسُ التاريخ وما هو دور المؤرخ في هذا المجال؟ أو بالأحرى كيف يجب ان يقدم هذا التاريخ الى الاجيال؟ الواقع ان المهمة تقع بالدرجة الاولى على مسؤولية الذين يكتبون التاريخ ولكن هل يمكن ان نسمي كل من امسك قلمًا وحاول الكتابة في التاريخ مؤرخاً؟ يتصور بعض الناس أنهم يكتبون التاريخ طالما امسكوا بالقلم والقرطاس وسطروا الصفحات عن الاحداث الماضية وقد ينجح هؤلاء في ان يقدموا بعض الكتب والكراريس. ويملئوا رفوف المكتبات بالغث من المعلومات التي لا يمكن بحال من الاحوال ان ترقى الى الحقائق التاريخية لان المؤرخ الحق الجيد لا يمكن ان يؤدي واجبه وعمله على الوجه الاكمل الا إذا توفرت فيه صفات ضرورية تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته على أكمل وجه وبصورة قريبة أو مطابقة للواقع.

١- ان اول الصفات التي يجب توفرها لدى جميع الدارسين سواء كانوا مؤرخين أم غير مؤرخين هي حب المعرفة والصبر على تحصيلها، والجد والمثابرة في البحث والعمل، مهما كانت الصعوبات والمشاق التي تقف في سبيله ولا يجوز أن تكون ندرة المصادر او غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها، عائقا إمام رغبته الجامعة في البحث عن الحقيقة وينبغي على المؤرخ، كما يرى حسن عثمان. "ان يقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لآخر في وطنه وفي كل مكان يمكن أن يعثر به على ما يفيد. وينبغي عليه الا يتسرع أو يقتضب تعجلا لنيل منفعة، لأن هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية " فالجد والمثابرة مزية في كل بحث علمي وهي مطلوبة بشكل خاص في البحث التاريخي لان الباحث المنتج هو الذي يروض نفسه على العمل الشاق المستديم وعلى الابتعاد عن الجلبة والضوضاء وعلى الصبر على ما يثيره البحث احيانا في النفس من شعور بالوحشة والغربة نتيجة لما تطلبه ظروفه من وحده وانزواء وتأمل.

٢- ويجب أن تتوفر للمؤرخ مزية الشك والنقد، فلا يجوز له ان يقبل كل الكلام او يصدق كل رواية أو أية وثيقة أو مصدر دون درس وفحص واستقراء، وقد بدأ التاريخ يتخذ فعلا صفة علمية منذ أن اخذ رجاله يشكون في الروايات التي نقلت إليهم بالسماع أو الكتابة، ومنذ أن عمدوا الى نقد رواياتها وحاولوا امتحان مضمونها ومهمة المؤرخ هنا تشبه كل من مهمة المحقق والقاضي فالأول يستنطق الشهود وجمع شهاداتهم وينقدها من اجل التوصل الى الحقيقة قبل اصدار الحكم ولا يستطيع كل من الاثنين ان يؤدي مهمته على وجهها الصحيح، إذا لم يأخذ هذه الروايات والشهادات بالشك والتحفظ، ولكن هذه الاصول القضائية مع ذلك ارحم من الاصول التاريخية كما يرى قسطنطين زريق لان المتهم برئ حتى تثبت ادانته في القضاء، ولكن في التاريخ الاتهام هو الاصل فكل نص مشكوك فيه الى ان تثبت صحته، وكل رواية

متهمة الى ان يقوم الدليل على صحتها ولا يمكن للمؤرخ أن ينجز عمله ،اذا لم يكن يتمتع بملكة النقد والشك ، لأنه يصبح بذلك مجرد شخص عادي ينقل كل ما يصله من اخبار دون تدقيق وتمحيص ويصدق كل ما يسمعه من روايات على انها حقيقة واقعة، وليس بهذا يُدرس أو يُكتب التاريخ ومن جهة أخرى يجب على المؤرخ أن يكون متزنا في شكه وواعيا في حسه النقدي أي بعبارة أخرى عليه الا يعالي في الشك والنقد الى درجة يمكن أن تفقده الاتزان في الحكم فالاتزان من صفات العلماء والمؤرخ هنا أحوج ما يكون اليها في عمله الذي يتناول النقد والتجريح ليكون حكمه صائبا في الوصول الى ما يبغيه من اتهام وتبرئة وصولا الى الحقيقة التاريخية.

٣- ومن المزايا والصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز والتجرد وهي مطلوبة في كل علم ومفروضة على كل باحث ولكنها أيسر تحقيقا في العلوم الطبيعية منها في العلوم الاجتماعية فليس من اليسير على المؤرخ أن يتجرد عندما ينظر الى ماضي امته ونصيبها من الحضارة وما حققته من انجازات أو ما أصابها من وهن وانتكاس، وقد حاول بعض المؤرخين الوصول الى هذا الهدف الصعب من أمثال رانكة زعيم المدرسة العلمية الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي الذي هدف هو واتباعه الى الموضوعية المطلقة والتجرد التام في عرض الوقائع التاريخية. ولكن ليس المقصود هنا بالتجرد صفته السلبيّة، التي تتضمن التخلص من كل شعور او فكر او معتقد فما من شخص يستطيع ذلك عمليا بل المطلوب من المؤرخ ان يحرر نفسه قدر المستطاع من الميل او الاعجاب او الكراهية لعصر من العصور أو لناحية تاريخية معينة ، وان ينفذ الى اعماق الافراد والجماعات الذين يكتب تاريخهم ويحس بأحاسيسهم جميعا، ويتفهم ظروفهم ويصير كأنه واحد منهم ينطق بأسمهم جميعا دون ان يلتزم أي فرد منهم او اي جماعة او امة من الامم دون سواها فهو بهذا يصل الى التجرد الايجابي المثمر، الذي لا يمكن ان يتخلى فيه عن معتقداته الأساسية ومواقفه الفكرية الاصلية ولكنه مع ذلك لا يتأثر في حكمه على الماضي بهذه المعتقدات، الامر الذي يجعل كتابته بعيدة عن التحيز لامتيل الى جانب على حساب الآخر مما يقربها الى الحقيقة المنشودة.

٤- وينبغي على المؤرخ التحلي بالأمانة العلمية وأن يكون رائده حب الحقيقة وقولها بشجاعة دون خوف او تردد فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق اصحاب الجاه والسلطة ولا يخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الاحيان والتي قد يكون في نشرها عدم رضا بعض الفئات من الناس الذين يعرفهم يمتون اليه بصلة معينة، ولا رقيب على المؤرخ في هذه الحالة سوى ضميره ومن يخرج عن هذه المبادئ سعيا وراء جاه، او انتفاع مادي او ارضاء لسلطة معينة لايمكن ان يعد مؤرخا"، ان الكشف عن بعض اخطاء الماضي والجوانب السلبيّة في تراث الامة القومي، يفيد الى حد كبير في السعي الى تجنب عوامل الخطأ في الوقت الحاضر، وربما يعد عدم الكشف عن بعض هذه الاخطاء تضليلا وبعدا عن المصلحة الوطنية "قد يكون اخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنيا في بعض الظروف". كما يقول حسن عثمان، حيث التجأت معظم الامم الى مثل هذا الاجراء، ولكن لا بد من اشهار الحقيقة بعد زوال الظروف القاهرة التي ادت الى اخفائها حتى يمكن الاستفادة، منها واستخلاص أكبر قسط من الحقائق التاريخية التي لا يمكن ان يكتب التاريخ دون الوصول اليها.

٥- ومن الصفات الضرورية الأخرى للمؤرخ الشعور بالمسؤولية والتواضع ازاء ما يقوم به من اعمال وهو شعور يملأ نفسه نبلا ويدفعه الى المزيد من العطاء فلا يجوز ان يتصدى الانسان الى دراسة الماضي بروح العبث او عدم الشعور بدقة المهمة التي يقوم بها وخطورة نتائجها ، لان ذلك سيعود بأضعف النتائج والضرر على نفسه وعلى الآخرين لأن مهمة المؤرخ صعبة، وعرة المسالك ويجب عليه ان يدرك ذلك قبل سواه كما يجب ان يعلم ايضا انه مهما توصل الى نتائج ومهما حلل من أسباب فهو لن يستطيع ان يكشف الكثير من الامور التي ماتزال مجهولة امامه وهذا يقوده بالتأكيد الى التواضع الذي يسبغه العلم الصحيح، والذي هو صفة العلماء في كل زمان ومكان بهذا التواضع يرتفع العلماء الى اعلى المنازل، لا في مراتب العلم حسب بل في مراتب التقدم الانساني ذاته وحرى بالمؤرخ الذي لا تقل مهمته صعوبة عن مهمة أيا منهم ان يكون اكثرهم تواضعاً، وأعمقهم احساساً بالمسؤولية الملقاة، على عاتقه.

٦- وينبغي على المؤرخ ايضا ان يبتعد عن حب الشهرة والظهور والا يكتب من اجل الكسب او الحصول على الالقاب والمناصب، فهذه كلها أمور زائلة مؤقتة لا يمكن ان تدوم ولا يبقى سوى ما سطره المؤرخ فهو وحده الذي يكون حكما عليه وعلى ما أداه لأمنته وستعرف الاجيال اللاحقة ماهية الاسباب التي دفعته الى ما كتب والتي ادت به الى مزلق الانجراف وتحريف الحقائق او تزييفها لقاء مال زائل أو منصب عابر، ان مهمة المؤرخ الاساسية هي الكشف عن الحقيقة العلمية وهذا بحد ذاته يعدل كل انواع الكسب والالقاب والمناصب فيجب عليه أن يحرص على هذه الحقيقة وان يعكف على الدرس والبحث دون ان يوزع جهده في اعمال اخرى يمكن ان تؤدي الى ابتعاده عن هدفه الاساس من البحث.

٧- وعلى المؤرخ أيضا ان يكون "ذا عقل واعي مرتب منظم" فهو في هذا شأنه شأن بقية رجل العلم الذين يحتاجون الى هذه الصفة للتركيز على الحقائق التي بين ايديهم، والمؤرخ الذي يمتلك عقلية منظمة أقدر من غيره على تنسيق الحقائق وترتيبها، والافادة منها في الموضوع المناسب، كذلك يكون قادرا على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان والربط بينها في اتساق وتناغم دقيقين وإذا ما افتقد المؤرخ هذه الصفة يصبح مشتت الافكار تضطرب في وجهه الاحداث وتختلط تفصيلاتها فيعجز عن الربط بينها ويفقد قابليته في البحث عن الحقيقة ووضعتها في أطرها الصحيح ضمن سياق الاحداث التاريخية التي يدرسها.

واضافة الى الفضائل والصفات الاخلاقية التي المحنا اليها سابقا ينبغي على المؤرخ

٨- ان يتحلّى بالاحترام التام وعدم التسرع في مهاجمة اي باحث آخر ارتكب من اخطاء قبل دراسة الظروف التي ادت الى تلك الاخطاء ويجب ان يكون اسلوبه من الرد خال من اي تحامل، ولا يهدف الا الى خدمة الحقيقة التاريخية لا غير كذلك يجب أن يكون المؤرخ صاحب احساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال بالقدر الذي يتيح له ان يدرك اراء غيره ونوازع الآخرين و بذلك يكون قادرا على تلمس اخبار مختلف الشخصيات العالمية التي يتعامل معها ويحس ما اختلج في صدور هؤلاء الرجال من مختلف العواطف ويفهم بقدر المستطاع الدوافع التي تدفعهم لاتخاذ سلوك معين في الماضي وليستطيع كذلك أن يشارك رجال الامس مواقفهم في اثناء الساعات الحرجة من التاريخ مثل فترات الانتفاضات والثورات وحقب المقاومة وفي ظروف النجاح والفشل.

